

الانتظار

همدان دماج

عندما مرَّ آخر خريف على حديقة منزله الصغير، كانت الذكريات الهزيلة تتطاير كأوراق شجرة الخوخ التي أكلها الدود لأول مرة وتنتشر في فضاء مكتوم، تحلق في الغيم الخريفي الغريب وترتطم على جدران منازل الحارة السكنية، هذه الحارة التي لم يعد يألّفها ولم تعد ملاحظها تذكره بأي شيء... كانت معلمها قد انتشرت وصورتها القديمة التي تخزن عمره وأسراره وآماله العظيمة قد انمحت تماماً وأصبحت ككومة أوراق ممزقة رميت بعنف في مزبلة الزمن؛ "الزمن" طينٌ في صدره المخوف، وغموضٌ لم يتوقف عن العدو ولو لمرة واحدة.

* * * □

كانت أوراق شجرة الخوخ، التي أكلها الدود لأول مرة، ما تزال تسرح في الهواء بعبثٍ شديد، التصق بعضها بزجاج غرفته الذي تكثفت على سطحه البارد من الداخل زفرات هاجعة كادت لكثرتها تثقل عليه وتمنع نفاذ ضوء ذلك اليوم الغيمي الأخير.

* * * □

كان ممدداً ومسنداً رأسه بكفه المرتعشة، يتأمل بهدوءٍ تام الأوراق المتطايرة، بما تبقى له من قدرة على استيضاح اللحظات النهائية المتتابة. لقد انتهى كل شيء بالنسبة له منذ زمن طويل، كل شيء، ما عدا ذهنه الذي ظل صافياً طوال السنوات التي "عاشته" دون هواة. أجهد أصابعه النائمة، وفتح دفتر مذكراته ذا الغلاف الجلدي السميك، وبدأ بإكمال ما كان قد بدأه منذ زمن طويل.

* * * □

كانت اللحظات صافية تماماً، فكل شيء كان واضحاً أمامه، بل إنه كان يحس، داخل قرارة نفسه، أنه من يصنع هذه اللحظات بنفسه بكل تفاصيلها المعقدة. ظل يكتب، ويكتب. وقبل أن ينكسر زجاج النافذة المثقل بضغط الزفرات المتراكمة، كان قد تمكن من كتابة آخر السطور التي لم يقرأها أحد سواه:

"وكليّة الزفاف كان انتظاري للموت... خليطاً من قلقي وتلهف...!!".

خریف 1996